تجديد اليسار بالتجاوز وليس بالقطع

د. سناء أبو شقرا
أستاذ جامعي (لبنان)

(افتتح الدكتور سناء أبو شقرا الاحتفال بالكلمة التالية وقدم الخطباء:)

في ليل الأزمات ينحت كريم مروة مسارب للأمل وكوى« للحلم. إنها لقدرة مذهلة على التفاؤل، يدفعها اجتهاد لا يتعب، وهمة شابة، مجنحة تتوسل حدود المعجزة – أقول المعجزة لأنني لا أؤمن بحدود للوهم.

لم يفارق مشروع تجديد اليسار، فكرا« وممارسة وتنظيما»، عقل كريم منذ كان أحد قادة هذا اليسار البارزين. كتب، وناضل، وثابر، محاولاً تقصي أسباب الفشل في مواجهة التحديات الجديدة دائما». وها هو اليوم يضيىء، مع شمعة الثمانين، نجمة جديدة يضيفها إلى كوكبة أعماله الفكرية.

لن أناقش في هذا التقديم السريع مضمون الكتاب وقضاياه. سيكون نقاش، ونأمل أن يساهم فيه كثيرون. هنا أكتفي فقط بإشارتين :

الأولى : هي أن تجديد اليسار أو بناء يسار جديد هما، بالنسبة لكريم، تعبيران عن معنى واحد في نهاية المطاف، حتى لو كان التعبير موضع جدل، وحتى لو كان الاختلاف يذهب أبعد من اللغة الأبجدية إلى لغة الترميز الواسع. هو لا يحب أن يقطع بل أن يتجاوز، بالمعنى الجدلي الإيجابي لفكرة التجاوز. ثم هناك امتلاء الذاكرة، وهناك الحنين الإنساني، وهناك الأهم : التواضع. فتوليد الجديد أبوة تحمل

تعسفا وادعاء بعيدين تماما« عن بنية كريم النفسية والذهنية. همه أن يحفز اليسار، قائما« أو آتيا» من الغد، لأن يكتشف في نفسه عناصر الحياة، والقدرة على إبداع نماذج اجتماعية وفكرية تستجيب لضرورات المواجهة في المرحلة الراهنة من تطور العالم والرأسمالية.

الثانية: إشارة من بنية البحث : عندما يثقل المؤلف كتابه بنصوص مختارة من كلاسيكيات الفكر الماركسي – وهي بالمناسبة نصوص جميلة وحاضرة – فليس لأنه يقترحها مرجعية جديدة لمنظومة إيديولوجية ليسار ما، بل للتمثل بكون ماركس تعامل مع فكره – ودعا الآخرين لأن يفعلوا – ككتابة مفتوحة على الاحتمالات، ونقد مستمر من الفكر للفكر نفسه، حين يمتحن ذاته في تجارب الحياة.

أجمل وأرقى الأفكار لا تعدو كونها تأطيرا« باهتا» للحظات عابرة من الإنسان، الحي، الباحث أبدا« عن العدالة والحرية في دروب التاريخ والمستقبل.

محاولات إصلاح كثيرة فشلت عبر التاريخ، لكنها تركت، كلها، معالم وبصمات. وإذا كانت محاولات القرن العشرين التي أعلنت نفسها اشتراكية، قد قصرت عن أهدافها المعلنة، إلا أن بصماتها على التاريخ كانت أكثر عمقا« وتأثيرا»؛ لأن منظومات القيم اكتسبت هذه المرة قدرة أعلى على التحقق عبر التصاقها المباشر والواعي بالصراع الاجتماعي،من جهة، وبإرادة الناس في تقرير مصائرهم من جهة ثانية، بعيدًا « عن أية قوى متعالية عن المجتمع، غامضة الأهداف، أو مجهولة الدوافع. مع ماركس الصراع بات مكشوفا» والتاريخ شفافا».

ذلك هو كريم في كتابه الجديد. حامل القيم عينها التي تخاطب عقل ونضال الملايين من البشر للخروج من غابة الاستغلال، والتخلف، والجشع، وشهوات السلطة إلى مجتمع جدير باسم الإنسانية.